(5)

ضعف التوجه العقلي

الخطـاب الإسلامي الرسمـي لا يتوقف عن التأكيد عـلى حميمية العلاقة بـين العلم والدين، وأن الإيمان بعالم الغيب ينطلق من النظر في آيات الكون التي يكشف العلم كل يوم شيئًا من أسرارها يدل على خالق مبدع.. فالعقول -في منظـور الإسلام- مصابيـح إنسانية نزل الوحي مقويـا وهجها، ومنحها زيتـا جديدا؛ لذا حثّ القـرآن الكريم على التفكر والتأمـل وإعادة النظر كأدوات لمعرفة الله، وهذا التأكيد من الخطاب الإسلامي بعدم التعارض بين العلـم والدين يقتضي منه أن يفسـح المجال للعلم ليتحدث عن العلل المباشرة للظواهر الطبيعية، وألا يتدخـل في تفسيرها؛ لأن هذا ميدان دراسات علوم متنوعـة، مكتفيًـا باتخاذ هذه الظواهـر مع عللها المبـاشرة موضوعًا للتذكير بالله عز وجلّ، مُفسحًا المجال للدنيوي ليتحدث عن نفسه في ميدانه.

فدعوى شـمولية الإسـلام لمناحي الحياة من منظـور الخطاب الإسلامي تحولـت من شـمولية مبـادئ وقيم وسنن كونيـة إلى شـمولية تفاصيل حياتية تحتوي حتى على تفاصيل الظواهر المادية مما جعل الخطاب الدعوي في حالة استنفار دائم لتفسير وتوجيه كل شيء.. فما أنتج المسلمون وأبدعوا في الدنيا إلا حـين أطلقوا العنان للاجتهاد العقلي، وانتفعـوا بما ترجموا عن الحضارات السابقة فكتبوا في علوم الطبيعة والرياضيات والطب وغيرها مما أفاد الغرب في حضارتـه الراهنـة، وإن كانت هناك محاولات قديمـة لتقديم تفسير ديني لبعـض الظواهر كما كان من ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مـن قوله في تفسير الرعد

بأنـه: «ملك يسـوق السحاب بمقلاع من فضة»[1] فـإن صحت الرواية فإنها لا تعدو عن كونها اجتهادا وتأويلا.

ومـن ناحية أخرى يتحمل الخطـاب الديني الرسمي جـزءًا من المسئولية عـن الإلحـاد في مجتمعاتنا ليـس بقصوره عـن الاستفادة من آليـات التواصل المستحدثة فحسب بل بضعف الاستدلال العقلي في خطابه بما يُهدد أن يكون خطـرا على البعض ممن لا يستطيعـون أن يفصلوا بين الدين والخطاب الديني لهـذا الداعية أو تلك الجماعة، فلا يُميّز بـين أخطاء الدعاة والإسلام، فيمسى الخطاب الدعوي في بعض صوره، وعلى ألسنة بعض دعاته أحد أسباب الإلحاد وكـما قال الدكتـور مصطفى محمود في رحلته من الشـك إلى اليقين «أول من زرع الشك في قلبي تجاه الدين خطيبُ الجمعة -في صباي- حين كان يتحدث ببعـض الآثار والمرويات، وأظن أنها الدين، فأقول في نفسي كيف بالدين لا يستقيم مع العقل؟!!».

الخطاب الدعوي في حاجة إلى أن يعزز النزعة العقلية في خطابه، فتهيئة العقل المسلـم للتفكير والبحث والنقاش والحوار هو مـا يساعده على النمو ومواجهـة الأفكار بالأفكار ومحاولة الوصـول إلى أجوبة لكثير من الأسئلة المسكـوت عنها، وليـس الحل في أن يصـمّ الشباب آذانهم عـن الاستماع إلى صـوت الآخـر، فمثل ذلك يصنع عزلـة تزيد من ضعـف مجتمعاتنا ولا تقدم حلـولا.. ومما يُقـوِّى النزعـة العقلية في خطابنـا الدعوي التسـاؤل المستمر والمراجعـة الدائمـة القادرة على تصحيـح الأخطاء، والتقـدم نحو مزيد من

(1) ينظر: ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: محمود محمد شاكر. ج1. ص140. ط دار المعارف. القاهرة.

الاجتهاد، ذاك التساؤل المستمر يدفع الخطاب الدعوي للبحث عن الإجابات المنطقيـة والحجج العقليـة في مناقشة الأفكـار.. وهذا ما فعلـه الشيخ عبد القاهـر الجرجاني قديما إذ بدأ صوغ قضايـاه ومناقشاته حول إعجاز القرآن الكريـم بطرح سؤال ينطلق منه، فلم يقنع بـرأي لسابقيه دون ذكر الحجة وبيان العلة.[1]

وأخيرًا فـإن الخطاب الديـني الرسمي يُقصّر في الحديث عـن دور العقل و إعمال الفكـر والتأكيد على مسئوليـة الفرد في الاختيـار والعمل والتمييز بـين التوكل والتواكل، مغذِّيًا فكرًا سلبيا لدى الجمهور بالتأكيد على المؤامرة الكونيـة التـي تُدبِّر ليـل نهار للنيل مـن الإسلام، فيثير الانفعـالات، ويحرك العواطف، ويقوى فكرة حتمية الصراع التي ينطلق منها خطاب الجماعات التصادمـي، متجاهـلا حقيقـة الدعوة الإسلاميـة التي أتت لتعـزز الفكر، و إعـمال العقل، وتمحو الجاهلية بدلالتها اللغوية، وليست دلالتها التاريخية، فمصطلـح الجاهلية قبل أن يستخدم مؤخـرا للدلالة على فترة تاريخية محددة زمنـا بعصر مـا قبل الإسلام، فإن دلالتها اللغوية ليسـت من الجهل الذى هو ضـد العلـم بل من الجهـل المضاد للحلـم، فالجهل تعبير عـن الغضب في قول الشاعر:

ألا لا يجهلـن أحـد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

فالجاهليـة خضـوع لسلطة الانفعـال والاستسـلام لقـوة العاطفة دون الاحتكام إلى رزانـة العقل وقوة المنطق ومن هنا يأتي التعصب، فالخصومات

(1) عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر. ج1 ص580، 581. ط دار المدني بجدة الطبعة الثالثة. 1413هـ - 1992م.

العربيــة التــي سببها الجهــل بمعنى الغضــب وقوامها عاطفة لا تعــرف العقل والمنطق هي أهم ملامح جاهلية المجتمع الذى جاء الإسلام لتغييرها بتعزيز الفكــر وسلطة العقل وضرورة الوعي، وامتداح الحلم والتحذير من التمادي في الغضب، فبين معنى الجهل الذى هو ضد الحلم قديما والجهل الذى هو ضد العلــم حديثا صلة قوية، فعدم العلم وانتقاء المعرفة ركيزة اساسية للخضوع لسطوة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة.

إن إســلام الوحي وضــع القواعد والقيــم الكلية اللازمــة لحفظ الوجود الإنساني، ثم ترك للمسلمين أمر الاجتهاد في التفاصيل لتغير الأزمنة والأمكنة وفــق سنة اللــه في الحركــة والتغيير غــير أن المتأخرين من المسلمــين أرادوا تثبيــت التفاصيــل عند طــرح القدامــى، في محاولة لإيقاف الحركــة والتغيير الزمــني ولما كان إيقاف الزمن عصيا عليهم أوقفــوا عقولهم وقالوا هذا ديننا، وذاك خطابنا..